

نوازع الإنسان بين الخير والشر



الإسلام يعطي أهميةً كبيرة للمبادئ الكريمة لتتغلغل في أعماق النفس لتستقر هذه التعاليم ولتصبح جزءاً من النفس الإنسانية.

والإسلام يعتبر أن النفس الصالحة هي المقصود لكل إصلاح؛ إذ أن القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به. أما القاضي الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة ويجنح بأهوائه؛ من هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة.. فإذا لم تصلح النفوس سادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم. لذلك يقول ﷻ سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُغْيَرُ لَكَ بِقَوْلِهِمْ حَتَّى يُغْيِرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ فِئْرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعَمَةً أَنْزَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغْيِرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال/ 52-53).

إن في النفس فطرةً طيبة تهفو إلى الخير وتُسَرُّ بإدراكه، وتكره الشر وتحزن من ارتكابه، وترى في الحق امتداد وجودها وصحة حياتها.

ولكن هناك إلى جانب ذلك نزعات طائشة تشرد بها عن سواء السبيل وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر.

هاتان النزعتان موجودتان في الإنسان تتنازعان أمره، ومصيره معلق بالنزعة التي يستسلم لها. قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس/ 7-10). وقد دفع الإسلام المسلم لأن يتخلص من الوسواس التي ترادوه وتحاول السقوط به، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الرُّوم/ 30)، غير أن كثيراً من الناس تثقل بهم أهوائهم فتجنح بهم إلى مكان سحيق فيخسرون أنفسهم ويخسرون حياتهم ومستقبلهم لأن

وأول ما يلفت الإسلام نظر المرء إليه أنَّ الجري مع الهوى والانصياع لوساوسه التي لا تنقضي لن يشبع النفس ولن يرضي الحق.. قال تعالى: (زُرِّيْنَا لَلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهِ عِنْدَهُ حُسْنُ الدِّمَاجِ) (آل عمران/ 14)، ومن ثمَّ حذَّر القرآن من اتباع الأهواء المحرَّمة فيقول تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الدِّينَ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (ص/ 26).

ولكن السؤال الهام في هذا الموضوع: هل كلُّ أهواء النفس سيئة وهل يجب قهر هذه الأهواء؟ إنَّ حاجات النفس الإنسانية الحلال ليست سيئة، وقد لاحظ القرآن الكريم هذه الناحية فنصَّ صراحةً على إباحة الرغائب السليمة للنفس، وترك لها فرصة التوسع الطيب، وعدَّ التدخل بالخطر والتحريم والتصيق على النفس في هذه الدائرة الكريمة قريناً لعمل السوء والفحشاء.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّ زَمَاجَ يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 169-168).

أجل إنَّ حظر الحلال الطيب قول على بلا علم وهو أخو السوء والفحشاء اللذان يأمر بهما الشيطان. فالإسلام يكره أن تعالج الغرائز بالكبت العنيف، ويشعر لها المنهاج الوسط بين الإفراط والتفريط.

والخلاصة: إنَّ الإسلام يحترم الفطرة الخالصة، ويحذر من الأهواء الجامحة الفاسدة ويقيم في وجهها السدود. والعبادات التي أمر بها الإسلام هي تدعيم للفطرة وترويض للهوى. ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدي رسالتها إلَّا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالي والمسلَّك المستقيم. ▶